البيان

مجلة أدبية ثقافية شهرية
تصدر عن رابطة الأدباء الكويتيين
العدد 505 أغسطس 2012

محمد الفايز .. بحّار الشعر

قراءة في ديوان: رأيت الذي رأى للشاعر علي السبتي
د. لطيفة جاسم التمار

ليلى العثمان.. بين الكتابة المقاومة وغنائية الانحياز
أشرف عبد الكريم

النقد حين يظهر بهجة السرد الروائي
د.عالية صالح

افتتاحية البيان: ملحمة بحار
سليمان الحزامي

التناص الديني في رواية «تحت أقدام الأمهات» لـ: بثينة العيسى

بقلم: د. عبد الحكيم الزبيدي *

مقدمة

التناص هو «أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين والتلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه ليتشكل نصا جديدا واحدا متكاملا»(١). وترى جوليا كرستيفا رائدة هذا المصطلح أن «كل نص يتشكل من تركيبة فسيفسائية من الاستشهادات، وكل نص هو امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى»(٢).

ويؤدي التناص وظيفة مهمة في النص الأدبي سواء أكان روائياً أم شعريا «ولا يستحضر هذا النص أو ذاك للزينة أو للديكور أو استعراض القدرات الثقافية، وإنما لغرض يراه المؤلف ضروريا لتعميق فكرته المطروحة أو بلورة رؤيته في قضية ما، أو يراه منسجما مع البناء الفني أو الأسلوبي أو اللغوي في روايته»(٣).

التناص الديني في عتبات الرواية

تبدو رواية «تحت أقدام الأمهات»(٤) للكاتبة الكويتية بثينة العيسى مبنية على التناص الديني منذ العنوان الذي يحيل إلى حديث نبوي شريف مشهور على ألسنة الناس يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «الجنة

---

* أكاديمي وناقد من الإمارات.

١- د. أحمد الزعبي: التناص نظرياً وتطبيقياً، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٠م، ص ١١

٢ - السابق، ص ١٢

٣ - السابق، ص ٢٩

٤- بثينة العيسى: تحت أقدام الأمهات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ٢٠٠٩.

تحت أقدام الأمهات»(٥) للدلالة على عظم حق الأم ووجوب برها الذي يقود إلى رضاء الله عز وجل ومن ثم يؤدي إلى دخول الجنة. وإذا كان الحديث السابق فيه أقوال، فإن هناك حديثا صحيحا يتفق معه في المعنى ويختلف في اللفظ، وهو: «أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم، قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها»(٦).

وإن غاب لفظ الجنة من عنوان الرواية، فإن الجنة كانت حاضرة من خلال عناوين الفصول الأربعة للرواية، التي جاءت متضمنة لنعيم الجنة، كما وصفتها الآية الكريمة في قوله تعالى:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)(٧).

وإن كانت الكاتبة لم تحافظ على تسلسل الوصف كما ورد في الآية، فجاءت عناوين فصول الرواية على الترتيب التالي: أنهار من لبن، وعسل مصفى، أنهار من خمر، أنهار مِّن ماء.

كذلك نلحظ أن الكاتبة استخدمت التناص بصورة معكوسة، إذا جاز التعبير. فقد وضعت إلى جانب العناوين الرئيسة لكل فصل، عناوين فرعية بين قوسين تهدم المعنى المتبادر إلى الذهن من استخدام ذلك التناص مع الآية الكريمة. فعنوان الفصل الأول: «أنهار من لبن»، يحيل إلى الآية الكريمة السابقة، ولكن الآية الكريمة وصفت اللبن بأنه: (لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ)، ولكن الكاتبة وضعت بعد العنوان السابق عنوانا فرعيا بين قوسين، هو: (تغير طعمه كثيرا). وهي بذلك تعكس المعنى المتبادر إلى الذهن من التناص مع الآية الكريمة، إذ تصدمه بأن هذا اللبن قد (تغير طعمه)، ثم لم تكتف بأن جعلته متغيرا، بل جعلته متغيرا (كثيرا).

وكذلك الشأن في الفصل الثاني، فإلى جانب العنوان الرئيس: «وعسل مصفى»، وضعت عنوانا فرعيا بين قوسين، هو: (وطن الشوائب والدود). فعكست معنى العسل المصفى إلى الوطن المليء

٥- صححه الزرقاني في: مختصر المقاصد، وحسنه السيوطي في: الجامع الصغير، وضعفه الألباني في: السلسلة الضعيفة (موقع الدرر السنية).

٦- الراوي:معاوية بن جاهمة السلمي المحدث:الألباني - المصدر:صحيح النسائي - خلاصة حكم المحدث:حسن صحيح (موقع الدرر السنية).

٧- سورة محمد، الآية ١٦

بالشوائب، ولم تكتف بذلك أيضاً بل أضافت إليه الدود، لتجعله منفراً، وتمسح أي أثر لمعنى الصفاء فيه.

وهكذا تفعل في عنوان الفصل الثالث: «وأنهار من خمر»، فتضيف إليه: (ثلاث سنوات ولم يسكر). وهي بذلك تجعلها خمراً كخمر الدنيا تسكر وتؤذي، لا كخمر الجنة التي هي لذة للشاربين.

وفي الفصل الرابع، تجعل العنوان الرئيس: «أنهار من ماء»، الذي يستدعي إلى الذهن أنهار الجنة، التي هي: (أنهَارٌ مِّن مَّاء غَيْر آسن)، ولكن الكاتبة تصدمنا بعنوانَ فرَعي بين قوسين، هو: (عود ذميم لمجاري الصدأ)، لتجعل الماء آسناً صدئاً، لتنفي عنه كل صفات ماء الجنة.

ونخلص من هذا إلى أن الجنة التي تصورها الرواية، هي جنة معكوسة، كل ما يفترض أن يكون فيها جميلاً نظيفاً ممتعاً، هو عكس ذلك تماماً. كذلك فإن حذف لفظة (الجنة) من العنوان، وجعله هكذا: (تحت أقدام الأمهات) يوحي بالهوان والضعة بذكر الأقدام، وينفي عنها صفة القداسة التي يحيل إليها النص الشريف: (الجنة تحت أقدام الأمهات). فالنص كما هو في الحديث الشريف يوحي بقداسة أقدام الأمهات التي أصبحت الجنة -وهي أعلى منزلة يطمح أن ينالها المسلم- لا تنال إلا بالركوع والخضوع تحت أقدام الأمهات. أما حين حذفت لفظة (الجنة)، فإن النص أصبح يوحي بالهوان والذل، كما أسلفنا، ولعل هذا ما أرادته الكاتبة، كما سنبين عند الحديث عن دلالات التناص في الرواية.

التناص الديني في متن الرواية

يظهر التناص الديني جلياً في متن الرواية من خلال الألفاظ التي استخدمتها الكاتبة في السرد أوعلى ألسنة شخصيات الرواية، على النحو الذي سنبينه في هذه الدراسة المختصرة. وسنبني دراستنا على محاولة تتبع التناص الديني الوارد في الرواية أولاً، ومن ثم سنحاول أن نتلمس الدلالات التي نحسب أن الكاتبة قد أرادتها منها. وقد تجلى التناص الديني الوارد في الرواية في اقتباس آيات من القرآن الكريم وعبارات من الحديث النبوي الشريف، وقد جاء إما مباشراً، وذلك باقتباس النص القرآني أو الحديث الشريف اقتباساً تاماً كما ورد بألفاظه، وإما غير مباشر، وذلك باستخدام المعنى القرآني أو معنى الحديث الشريف مع التصرف في الألفاظ والصيغة. وسندلل على كل شكلٍ منهما في السطور الآتية.

أولاً: التناص المباشر مع القرآن الكريم

ورد التناص المباشر مع آيات من القرآن الكريم في مواطن كثيرة من الرواية. منها ما ورد بتقديم يشير إلى أن ما يأتي آية كريمة، ووضعت بين علامتي تنصيص، كما في قول الكاتبة(٨): (أن تقضي شهلة عدتها

٨- الرواية، ص ٦٤

في البيت الكبير بحسب ما تقتضي الآية القرآنية ((لا تخرجوهن من بيوتهن)).

والآية بتمامها(٩):

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا).

وواضح من السرد مدى إلمام الكاتبة بفقه الطلاق وبتفسير الآية الكريمة.

قال الزمخشري في تفسير الآية(١٠): «(لا تخرجوهن) حتى تنقضي عدتهن (من بيوتهن) من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج».

ولكن ورود الآية على لسان (رقية)، وهي الفتاة اللقيطة التي تعمل في البيت أشبه بالخادمة، فإن ذلك -في رأيي- غير موفق، إذ لا يتناسب مع ثقافتها، التي من المفترض أن تكون متواضعة.

وتكاد تكون هذه الآية هي الموضع الوحيد الذي ورد فيه النص على أنها اقتباس قرآني مباشر، إذ نجد الاقتباسات الأخرى ترد دون نص على أنها من القرآن الكريم، ولكن ورودها بالألفاظ القرآنية نفسها جعلنا ندرجها ضمن التناص المباشر. فمن ذلك قول الكاتبة(١١): (سَلامٌ قَوْلا من رَبٍّ رَّحيم)(١٢)، الذي ورد على لسان العجوز (غيضة) حين رأت قصاصات الورق تلاحق يد فهاد، ترتفع إذا رفع يده وتهبط إذا أهبط يده. وقولها على لسان أم فاطمة حين سألتها ابنتها لماذا فهاد متميز عن بقية الناس؟ فردت الأم(١٣): (ذلك فضل الله يُؤتيه مَن يَشاء)(١٤). وقولها(١٥): (فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إلا مَسَاكِنُهُمْ)(١٦). حيث وردت الآية الكريمة بين قوسين مزخرفين للدلالة على أنها نص قرآني، وقد وضعتها الكاتبة تحت عنوان القسم الأول

٩- سورة الطلاق، الآية ١

١٠- الزمخشري: محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج ٤، ص ٤٢٠

١١- الرواية، ص ١٠١

١٢- سورة يس، الآية ٥٨

١٣- الرواية، ص ١٠٦

١٤- سورة الجمعة، الآية ٤

١٥- الرواية، ص ١٥٧

١٦- سورة الأحقاف، الآية ٢٥

من الفصل الثالث (رقية)، وكأنها عنوان فرعي.

وقد دأبت الكاتبة على جعل اسم الشخصية التي يدور السرد حولها أو على لسانها عنواناً للقسم. ولكن الملاحظ أن الفصل الثالث بكامله قد جاء على لسان (رقية) إذ تولت السرد لأقسامه الستة عشرة. وفي هذا الفصل يتم سرد تفاصيل سجن فهاد بسبب قتله لرجل، وأثر ذلك على النساء في البيت اللواتي أصبحن في حالة سيئة، تصدق عليهن فيه هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن قوم هود الذين أهلكهم الله بالريح العقيم.

ثانياً: التناص غير المباشر مع القرآن الكريم

أما التناص غير المباشر من القرآن الكريم فكثير نكتفي منه ببعض النماذج للتمثيل. فمن ذلك قولها(١٧): (بعد أن حرمت عليه المراضع). ففيه إحالة إلى قول الله تعالى حكاية عن نبي الله موسى عليه السلام(١٨): (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ من قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ). والعبارة جاءت في الرواية على لسان (هيلة) بعد أن أرضعت الطفل (فهاد) لأن أمه لم تستطع أن ترضعه، وقد حرمت جدته على عمتيه (هيلة) و(نورة) أن يرضعنه حتى لا يصبح أخاً من الرضاعة لابنتيهما فيمتنع عليه الزواج بإحداهما، ولذلك جاء استدعاء الآية مناسباً جداً للسياق، ومتسقاً معه.

ومن ذلك أيضاً قولها(١٩): (أوصت غيضة الحوامل الثلاثة(٢٠) بأن يدخلن من أبواب متفرقة). ففيه إحالة إلى قول الله تعالى على لسان النبي يعقوب -عليه السلام- يوصي أولاده حين أرسلهم إلى مصر ليمتاروا في سني القحط(٢١): **(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)**.

وكان سبب ذلك كما ورد في تفسير ابن كثير أنه خشي عليهم من العين(٢٢): (قَالَ ابْن عَبَّاس وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَمُجَاهد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد إِنَّهُ خَشِيَ عَلَيْهِمْ الْعَيْن وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي

١٧- الرواية، ص ٣٢

١٨- سورة القصص، الآية ١٢

١٩- الرواية، ص ٤٨

٢٠- كذا في الأصل، والصواب: الثلاث

٢١- سورة يوسف، الآية ٦٧

٢٢- الخالدي، صلاح عبد الفتاح: تفسير ابن كثير. عمّان، دار الفاروق للنشر و التوزيع، ٢٠٠٨

جَمَال وَهَيْئَة حَسَنَة وَمَنْظَر وَبَهَاء فَخَشِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصيبهُمْ النَّاس بِعُيُونِهِمْ). وهو السبب نفسه الذي جعل (غيضة) تطلب من الحوامل الثلاث أن لا يدخلن من باب واحد خوفاً عليهن من العين.

ومن ذلك أيضاً قولها(٢٣): (أن يفجر من تحتها أنهار الخمر والعسل). ففيه تناص غير مباشر مع أكثر من آية في القرآن تتحدث عن تفجير الأنهار، مثل قوله تعالى:

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا)(٢٤).

وفيه أيضاً إحالة إلى آية أنهار الخمر والعسل التي سبقت الإشارة إليها في صدر المقال. وشبيه بها قولها(٢٥): (كانت أنهار الجنة تجري من تحته) ففيه تناص غير مباشر مع قول الله تعالى:

(أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)(٢٦).

وقد جاءت العبارة على لسان (رقية) تصف الجنة التي أرادت العجوز (غيضة) أن تنشأها لعائلتها: (استطاعت العجوز خلال أربعة أشهر أن تدشن جنتها الموعودة، وأن تجري من تحتها أنهار الخمر والعسل). ولكن سيتضح فيما بعد أن هذه الجنة كانت معكوسة النعيم.

ومن ذلك أيضاً قولها على لسان (رقية) تصف (شهلة) أم (فهاد) بعد أن ساءت حالتها الصحية، وتضاعف وزنها(٢٧): (حال المرأة التي تحمل في جسدها سبع بقرات سمان). ففيه تناص غير مباشر مع قول الله تعالى(٢٨):

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ).

وقولها على لسان (رقية) متحدثة عن العجوز (غيضة)(٢٩): (لم تهش علي بعصاها الخشبية)، ففيه

٢٣- الرواية، ص ٧٣

٢٤- سورة الإسراء، الآية ٩١

٢٥- الرواية، ص ٢٦٢

٢٦- سورة الكهف، الآية ٣١

٢٧- الرواية، ص ٢٢١

٢٨- سورة يوسف، الآية ٤٣

٢٩- الرواية، ص ١٦٤

إشارة إلى قول الله تعالى على لسان سيدنا عليه السلام: (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) (٣٠). وهو كناية عن أن (غيضة) كانت تعاملها معاملة الأغنام، ولكنها في تلك الحالة لم تفعل لأنها كانت تمر بحالة نفسية صعبة بعد سجن فهاد. قال الزمخشري في تفسير الكشاف(٣١): (وأهش بها على غنمي) هش الورق: خبطه أي: أخبطه على رؤوس غنمي تأكله.

ومن ذلك أيضا قولها على لسان (رقية) تصف رأي (هيلة) في عدم جواز الاحتفال بعيد الميلاد(٣٢): (ولأن كوننا أحياء هو دليل قاطع على قلة عقولنا، لأننا رضينا بحمل الرسالة التي أشفقت منها السموات والأرض وأبين أن يحملنها وحملها الإنسان ..»إنه كان ظلوما جهولا»). ففيه إشارة إلى قول الله تعالى(٣٣):

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا).

ومرة أخرى ترد هذه الآية وهذا المعنى الشرعي الدقيق على لسان (رقية)، وإن كان وروده حكاية عن (هيلة) يخفف من عدم اتساقه مع الشخصية.

ومرة أخرى وردت الآية على لسان (رقية). ولا ندري ما الذي تقصده الكاتبة من جعل هذه الصفات للنساء؟ وهي كما يقول المفسرون صفات للملائكة.

ومن ذلك قولهاعلى لسان (موضي) تصف حالتها عندما فرت من أمها وذهبت لتقابل (فهاد) رغم عدم موافقة أمها(٣٦): (بفستاني الذي قد من دبر)، ففيه تناص مع قول الله تعالى: (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) (٣٧). وكانت قد وصفت عراكها مع أمها في الجزء السابق، ومنه ما يخص أمر الفستان: (أركض، تسبقني إلى الباب، تشدني من فستاني، أدفعها، يرتطم رأسها بالجدار .. أفتح الباب..).. إلخ. وفيه إحالة إلى قصة (يوسف) عليه السلام مع امرأة العزيز، حين استبقا الباب، وحاولت الإمساك به

٣٠- سورة طه، الآية ١٨

٣١- الزمخشري: الكشاف، ج٣،ص ٤٤

٣٢- الرواية، ص ١٨٦

٣٣- سورة الأحزاب، الآية ٧٢

٣٤- الرواية، ص ٢١٦

٣٥- سورة النازعات، الآيات ٣-٥

٣٦- الرواية، ص ٢٣٦

٣٧- سورة يوسف، الآية ٢٨

من الخلف، فقدت قميصه من دبر. وفي استدعاء قصة (يوسف) عليه السلام مع امرأة العزيز ما يشير إلى التشابه بينهما، فكما كانت امرأة العزيز في حالة وله وعشق ليوسف، كانت (موضي) في حالة عشق وولهٍ بفهاد، حتى أنها أغلظت القول لأمها التي حاولت منعها بالإقناع أولاً، فلما لم تفلح حاولت منعها بالقوة، وشدتها من فستانها فقدته. إلا أن الحالة معكوسة إذ قد فستان (موضي)، وليس قميص (فهاد)، ولكن الكاتبة أفلحت في الاستفادة من النص القرآني، بتصوير استيلاء العشق على (موضي) حتى منعها من التفكير، وجعلها تعصي أمها، وتمضي للقاء (فهادٍ) في سطح المنزل.

ثالثاً: التناص غير المباشر مع الحديث الشريف

لم يرد في الرواية تناص مباشر مع الحديث الشريف، ونقصد بذلك أن يرد قبله ما يدل على أن النص التالي هو حديث شريف، كعبارة: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»، أو ما شابهها. وإن كانت قد وردت بعض العبارات المشهورة بين الناس على أنها أحاديث بين علامتي تنصيص، ولكنا أدرجناها ضمن التناص غير المباشر، لأن الكاتبة لم تنص على أنها أحاديث.

فمن تلك الاقتباسات التي وردت بين علامتي تنصيص، قول الكاتبة على لسان (رقية) حكاية عن العجوز (غيضة)(٣٨): (وأنه واجب ديني على كل أم وأب، أن يعلما أولادهما «السباحة والرماية وركوب الخيل»)، وذلك عندما اعترضت النساء الثلاث حين أهدت العجوز (فهاد) بندقية صيد لما بلغ الخامسة عشرة من عمره، فما ورد بين علامتي التنصيص هو قول مشهور على ألسنة الناس على أنه حديث، وإن كان هناك من المحدثين من ضعفه(٣٩). واستدعاء هذا القول المأثور متناسب مع السياق، حيث بررت به العجوز سبب إهدائها البندقية لحفيدها أنها تفعل ذلك عملاً بتعاليم الدين التي توصي بتعليم الأبناء الرماية.

أما التناص غير المباشر فأمثلته كثيرة في الرواية، فمن ذلك قول الكاتبة على لسان (نورة)(٤٠): (وصوت آثم في أعماقي يخبرني بأنني أقسمت على اجتراح المستحيل دون رغبة مني، وبأنني لأجل ذلك سأكب على وجهي في النار) ففيه إحالة إلى قول الله الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه في الحديث

٣٨- الرواية، ص ١٨٧

٣٩- حسنه السيوطي في: الجامع الصغير، وضعفه الألباني في: السلسلة الضعيفة (موقع الدرر السنية).

٤٠- الرواية، ص ٨٠

المشهور(٤١): (وهل يكب الناس في النارعلى وجوههم إلا حصائد ألسنتهم). وهي تقصد ما جعلتها أمها العجوز (غيضة) تقسم عليه هي وأختها (هيلة) وزوجة أخيها (شهلة)، بأن يقسمن حبهن بالتساوي بين أطفالهن (فهاد) و(فطومة) و(مضاوي)، دون أن تؤثر إحداهن ابنها أو بنتها بمعاملة خاصة. والتناص متناسب مع المعنى المراد من الحديث، فالحديث يتحدث عن أن ما يصدر عن اللسان هو أكثر ما يكب الناس على وجوههم في النار، و(نورة) أقسمت، ولكن ليس من قلبها بل من لسانها فقط، لذلك فهي تخشى عاقبة ذلك.

ومن ذلك قولها على لسان (نورة) أيضا(٤٢): (كثيرا ما رددت علينا أمنا بأن الله يحاسب عباده على ديونهم حتى الشهداء)، ففيه إشارة إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم(٤٣): (يُغفر للشهيد كل ذنب، إلا الدين).والعبارة وردت حكاية عن العجوز (غيضة) للنساء الثلاث وهو أن أي واحدة تفرط في القسمة العادلة للحب بين الأطفال الثلاثة، ستثقل كاهلها بدين، ولن يسامحها الله في ذلك الدين، لأن الله لا يسامح حتى الشهيد -على عظم منزلته عند الله- على الدين.

ومن ذلك قولها على لسان (فهاد) حين عاد مرتجفا بعد أن قتل عامل البناء ببندقية الصيد(٤٤): (اندس تحت لحاف جدته وراح ينادي على أمهاته أن دثروني)، ففيه تناص مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه الوحي لأول مرة: (جاورتُ بحراء، فلما قضيت جواري هبطت، فناديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت أمامي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فرأيت شيئا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماءً باردا، قال: فدثروني وصبوا علي ماءً باردا، قال: فنزلت: «يا أيها المدثر.قم فأنذر.وربك فكبر»)(٤٥). وقد وردت تلك العبارة في الرواية على سبيل التهكم والسخرية، حيث قالت الكاتبة بعده: (تحققت النبوءة إذن حين شب الابن على أبيه قاتلا وبجدارة). فكأن قوله: (دثروني)، كان علامة على تحقق النبوءة، كما كان قول النبي (صلى الله عليه

٤١- صححه الألباني في صحيح الجامع (موقع الدرر السنية).

٤٢- الرواية، ص ٨١

٤٣- رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص (موقع الدرر السنية).

٤٤- الرواية، ص ١٩٥

٤٥- رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله (موقع الدرر السنية).

وسلم) ذلك بدءاً بتلقيه الوحي.

ومن ذلك قولها تصف (فهاد)(٤٦): (وابتسم حتى بانت نواجذه). وفيه تناص غير مباشر مع كثير من الأحاديث الشريفة(٤٧) التي وردت فيهاهذه العبارة: (فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه). وذلك حين سأل (فهاد) (موضي) إن كانت قد اشتاقت له أثناء غيابه في السجن، وحين قالت: يعني، قال لها: كذابة، ثم ابتسم حتى بدت نواجذه. على أن الوارد في الحديث هو أنه (ضحك حتى بدت نواجذه)، أما في الرواية ففهاد (ابتسم حتى بانت نواجذه)، والابتسام لا يؤدي إلى ظهور النواجذ، إذ النواجذ هي أقصى الأضراس، وهي ما تعرف اليوم بضروس العقل، ولا تظهر عند مجرد التبسم، بل عند الضحك. وإن كان بعض المفسرين قد حمل النواجذ في الحديث على الأنياب، لأن ضحك النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا تبسما، ومن حمله على الأضراس، أوله أنه على المبالغة لا على الحقيقة(٤٨).

دلالات التناص في الرواية

بعد استعراض أشكال التناص الديني الواردة في الرواية، يجدر بنا أن نتساءل عن دلالات تلك التناصات، وعلاقتها بفكرة وموضوع الرواية. وينبغي أن نقر هنا إلى أنه ليس لدينا دليل قطعي نستطيع من خلاله التأكيد على ما سنقوله، ولكننا سنجتهد أن نستنبط تلك الدلالات، ونأمل أن نوفق في هذه الاستدلالات وإلا فحسبنا أننا بذلنا الوسع واستفدنا الطاقة، ويبقى العمل الأدبي دائماً مفتوحاً على كل التفسيرات والتحليلات.

أشرنا في صدر هذه الدراسة إلى أن الكاتبة جعلت من مكان الرواية في ذهن بطلتها وأهم شخصية فيها وهي الجدة (غيضة) جنة تجري من تحتها الأنهار، ولكن الكاتبة -كما أسلفنا أيضا- جعلت هذه الجنة معكوسة، فكل ما في نعيم الجنة من صفات الجمال والكمال ينعكس في جنة (غيضة). فالماء آسن، والعسل تشوبه الشوائب، والخمر ليس لذة للشاربين. كذلك فإن حذف عبارة (الجنة) من العنوان وجعله فقط: (تحت أقدام الأمهات)، يوحي بالضعة والمهانة والذل، بدلاً من التقديس والتبجيل. فماذا أرادت الكاتبة من كل ذلك؟ لتلمس تلك الأسباب، يجدر بنا أن نلخص أحداث الرواية في أسطر قليلة، لنحاول أن نستشف منها مراد الكاتبة.

٤٦- الرواية، ص ٢٢٥

٤٧- مثل حديث الرجل الذي وقع على امرأته في نهار رمضان، وقد رواه البخاري في صحيحه (موقع الدرر السنية).

٤٨- لسان العرب، مادة (نجذ)

تتحدث الرواية عن الجنة التي استطاعت غيضة أن تدشنها في بيتها بعد أن غيرت في تصميمه، وجهزته ليكون الجنة الموعودة التي سينشأ ويتربى فيها حفيدها (فهاد بن علي)، الذي فقد أباه وهو في بطن أمه (شهلة)، وأصرت الجدة على أن تبقى أمه مقيمة معها لينشأ (فهاد) على عينها، فأطاعتها الأم رغم اعتراض أهلها فغضبوا عليها وانقطعت صلتها بهم. ويعيش معهم في المنزل ابنتا العجوز (هيلة) وابنتها (فاطمة) و(نورة) وابنتها (موضي)، بالإضافة إلى (رقية) وهي فتاة سمراء تبنتها العجوز بعد أن وجدتها تركض في الشارع أثناء أحداث الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠م، وأصبحت كالخادمة في المنزل. وتفرض العجوز (غيضة) التي تنتمي إلى قبيلة بدوية، وتزوجت وهي في التاسعة من عمرها وزفت إلى عريسها وهي في الرابعة عشرة من عمرها، سيطرتها على كل من في المنزل، فلا يستطيع أحد أن يناقشها أو يعترض على أوامرها. ونظرا لأنها عاشت في جيل قديم توارث عادات ومعتقدات، قد أصبحت اليوم محل تساؤل وجدل، ولم تعد من المسلمات، فإن صراعا خفيا ينشأ بين النساء اللواتي يتطلعن إلى الحرية خارج هذا السجن الذي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، وعدم قدرتهن على التمرد نظرا لعدم وجود المعين. فـ(شهلة) تخلى عنها أهلها ولم يعد لديها من تلجأ إليه، و(نورة) تعيش مع زوجها المشغول بسهراته وملذاته متخليا عن واجبه نحو أسرته، و(هيلة) تعيش بلا زوج، و(رقية) لا تعرف لها أهلا.

وتجعل العجوز محور الحياة في المنزل/الجنة هو (فهاد) فالكل عليه أن يعمل على تلبية طلباته فهو رجل البيت وسيده المطاع رغم أنه طفل صغير، فينشأ (فهاد) وهو يرى أنه فوق الجميع. وحين يبلغ الخامسة عشرة تهدي له جدته بندقية والده، فيلعب بها مع أصحابه، ولكن يحب مرة أن يجرب أن يقتل بها رجلا، فيصوبها نحو عامل بناء فيرديه قتيلا، ويحكم على (فهاد) بالسجن ثلاث سنوات. وحين يخرج من السجن يجد الطفلتين: (فاطمة) و(موضي) قد أصبحتا فتاتين ناضجتين، وأخذتا تتنافسان على كسب وده، فيختار أولا (مضاوي) ولكنه يتركها حين تخبره برغبتها في مواصلة الدراسة، ومن ثم رغبتها في العمل. ثم يختار (فاطمة) ويتزوجها. وهنا تلجأ (مضاوي) لأمها التي كانت تحذرها من (فهاد) ولكنها لم تستمع إليها، تعود إليها نادمة، وتقترح الأم على ابنتها أن تتصل بأبيها ليأتي ويأخذهما إلى حيث يعيش مع زوجته الأخرى، ولكنها بعد ذلك تتراجع، وتقرر أن تغادر مع ابنتها إلى حيث يعيشان حياة خاصة بهما وحدهما.

والذي يظهر لي أن الكاتبة قد أرادت أن تقول أن حياة المرأة التي تعيش تحت مظلة الرجل هي حياة ظل، وأنه ينبغي على المرأة أن تتخلص

من ذلك القيد الذي يجعلها تابعة للرجل، تأتمر بأمره، وتعيش تحت ظله، فإن كان كريما بطبعه أكرمها، وإن كان لئيما أهانها.

ويبدو كذلك أن الكاتبة تلوم المرأة وتتهمها بأنها هي التي أعطت كل تلك السلطات للرجل، فأخذ يعتبر نفسه الحاكم المطلق الذي لا يرد له طلب. فالعجوز (غيضة) هي التي نشأت حفيدها (فهاد) على تلك الصفة، وجعلت من حوله يعامله على أنه (الحاكم بأمره) الذي يكون هوى الجميع تبعا لهواه. فالطفلتان يجب أن تربيا بطريقة خاصة حتى يختار منهما (فهاد) عروسة المستقبل، ولا يهم مشاعر تلك التي لا يقع عليها الاختيار ولا يهم مصيرها. و(نورة) أم (موضي) ضلت تنتظر الحل أن يأتيها من زوجها الذي أهملها هي وابنتها وتركهما تتجرعان تسلط الجدة. وهكذا لم يأت الحل إلا حينما قررت (نورة) أن تأخذ ابنتها إلى عالم آخر وأن تعيشا معا بمفردهما تواجهان مصاعب الحياة وتتقاسمان النجاح والفشل.

من منطلق هذا الفهم لمغزى الرواية، نستطيع أن نؤول التناص الديني الوارد فيها. واعتمادا على ثقافة الكاتبة الدينية العميقة التي تتضح جليا من خلال الرواية، فإننا سنبني تصورنا على أن الكاتبة ذات أيديولوجية متسقة مع الدين الإسلامي، وبناء عليه، فإننا سنؤول التناص الوارد في الرواية بأن تضور مجتمع الرواية وفهمه لمنزلة المرأة في الإسلام، هو فهم وتصور خاطئ يحمل من العادات والتقاليد البدوية التي تربت عليها العجوز (غيضة) أكثر مما يحمل من تعاليم الإسلام الذي كرم المرأة وجعل الجنة -وهي أسمى ما يطمح إليه المؤمن- تحت قدميها. وأن الجنة التي خلقتها (غيضة) هي جنة معكوسة عن الجنة التي أعدها الله لعباده المتقين، وجعل الوصول إليها يمر من تحت قدمي المرأة. فعلى المرأة أن تعي هذه المكانة السامية لها التي وضعها الإسلام فيها، وأن لا تتنازل عن حقوقها التي كفلها لها الشرع الحكيم، وأن تجاهد من أجل الحصول عليها.

ويبقى للقارئ -بعد ذلك- الحق في أن يفسر التناص على النحو الذي يراه مناسبا، وبذلك تتعدد قراءات الرواية، وذلك من علامات نجاحها بلا شك.